فلسفة الحنين في شعر جبران: قراءة جمالية

د.فاطمة بنت عويض المطيري[١]

الملخص

موضوع البحث: فلسفة الحنين في شعر جبران: قراءة جمالية

أهداف البحث: إعادة النظر في فلسفة الحنين والحب والزمن، والتركيز على إحساس جبران الشاعر بكليّة الأشياء من حوله من خلال قراءة قصائده التي تعكس عالمه المثالي، وتحمل نغمات خاصة تعبر عن فلسفة عميقة تصور تجربته في الحياة.

منهج البحث: المنهج الجمالي الذي يكشف عن القيم الفنية والجمالية التي يكون بها الأدب، وشعر جبران يعالج مشكلات الوجود وبخاصة الحنين بطريقة فلسفية تعبر عن الإنسانية التي تحمل كل معنى جميل.

أهم النتائج: تبرز هذه الدراسة فلسفة جديدة في عالم الحنين عبّر عنها جبران داخل عالمه المثالي الذي يكشف عنه شعره، ويقدم ما ينبغي أن يكون وفق خيالات الشعر، وما تمليه عليه هذه الفلسفة.

تنعكس فلسفة الحنين في شعر جبران على النص من خلال بناء المعجم الجبراني الذي

(١) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية- كلية التربية بالمجمعة- جامعة المجمعة
حصلت على درجة الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحة: (البطولة في شعر عامر بحيري- دراسة موضوعاتية).
حصلت على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحة: (تحولات الصورة في الشعر السعودي من ١٤١٠هـ حتى ١٤٣٨هـ -دراسة إنشائية).
E: f.almutari@mu.edu.sa

يتضح فيه أثر المدرسة المهجرية في شعره، خاصة في فكرة الحنين والحب الفلسفي الصوفي، واستعمال المجازات الخاصة به داخل عالمه الخاص.

تظهر فلسفة الجمال في نص جبران الشعري بصورة كاملة باكتمال بناء القصيدة الواحدة، فعملية المزج بين البحور والقوافي مع مصداقية القصد والدلالة عنده تحقق الرؤية الفلسفية في شعره.

التوصيات: يوصي هذا البحث بإعادة قراءة النصوص الإبداعية الأدبية وفق مناهج فكرية، مثل: المنهج الجمالي، إلى جانب المناهج السياقية.

الكلمات المفتاحية: شعر- فلسفة- جبران- الحنين- جمالية.

Philosophy of Nostalgia in Gibran's Poetry: An Aesthetic Reading

Dr. Fatimah Awaid Almutairi

Abstract

Research topic: Philosophy of Nostalgia in Gibran's Poetry: An Aesthetic Reading.

Research objectives: To reconsider the philosophy of nostalgia, love, and time by focusing on Gibran the poet's sense of the totality of things. To reflect on his ideal world which carries special tones of expressing a deep philosophy depicting his life experience.

Methodology: the aesthetic approach that reveals the artistic and aesthetic values attributed, and Gibran's poetry addresses existence issues, especially nostalgia, in a philosophical manner that expresses humanity and beauty.

Results: This study highlights a new philosophy in the world of nostalgia that Gibran expressed within his ideal world revealed in his poetry, as per his philosophy, and fantasies of poetry.

The philosophy of nostalgia in Gibran's poetry is reflected in the text through the construction of the Gibranian lexicon, in which the impact of the immigrant school is evident in his poetry, especially in the idea of nostalgia and mystical philosophical love, and the use of his metaphors within his world.

The philosophy of beauty appears in Gibran's poetic text fully with the completion of the construction of a single poem. This construction consists of mixing poetic meters and rhymes, the intent's credibility, and the significance of his philosophical vision.

Recommendations: This research recommends re-reading literary creative texts according to intellectual approaches, such as the aesthetic and contextual approaches.

Keywords: poetry - philosophy - Gibran - nostalgia - aesthetics.

المقدمة

يرتبط الشعر بالفلسفة من خلال التعبير عن تجارب الحياة وواقع النفس والمجتمع، وبوصفها وسيلة علمية تتناول فهم الإنسان وإدراكه للكون والوجود والحياة، وفي الوقت نفسه "تهتم بمشكلات الإنسان المفكر في قضاياه العمومية التي تهمه"(١).

ورغم جدلية العلاقة بين الشعر والفلسفة، وإشكالية هذه القرابة، فإنه لا يمكن الفصل بينهما، انطلاقًا من فكرة أن "النص الذي يحمل الفلسفة لا يموت"(٢)، وقد أشار أفلاطون إلى أن التنازع قديم بين الشعر والفلسفة، واللغة باعتبارها الوسيط يمكن أن تبقى ماثلة بذاتها، حاملة سلطتها الخاصة في النص المستقل بذاته الذي ينطقها ويعبر عنها(٣)، وبذلك اهتم الفلاسفة والنقاد والشعراء بإبراز تلك العلاقة، واجتهدوا في إثباتها معتمدين على التغييرات الجوهرية التي شهدها الفكر متضمنة روحًا جمالية مشحونة بدلالات جديدة ذات مغزى جمالي.

وتنطلق هذه الدراسة من علاقة الشعر بالفلسفة، وكيف للشعر أن يتمثل الفكر الفلسفي الخاص بالمبدع، والكلام هنا خاص بإبداع جبران الشعري، وبالتحديد قصائده المكتوبة بالعربية الفصحى، فهو أديب موسوعي أبدع في الرسم والشعر وكتب بالعربية والإنجليزية، وكل ذلك يجعلنا نقرأ كلمته المكتوبة من منظور جمالي فلسفي؛ لأن ما سطره جبران يذكرنا بالمكانة العالية المتفردة بالأدب العربي الحديث التي حظي بها، وهي رغم الاغتراب والتشتت وضعف التواصل مع الشرق نجدها شديدة التميز والتفرد.

(١) نقد المذهب الجمالي، هل نستغني عن الصدق؟ النويهي، ص١٨.
(٢) الفلسفة والنقد، لمريني، ص٦.
(٣) انظر: تجلي الجميل، جادامر، ترجمة: سعيد توفيق، ص٢٦٨، ٢٦٩.

وتحمل قصيدة جبران نغمات خاصة تعبر عن فلسفة عميقة تجعل القارئ للنص شريكًا فيما يتصوره الشاعر؛ لأن الفلسفة تتأسس بمشاركة الحوار أو في داخل الشاعر الذي يسمى تفكيرًا.

ولأن "الشعر لا يخبرنا عن الحياة بل يجعلنا نحيا"(١) فقد رسم جبران عالمه الخاص في مملكة المثل –كما سماها أفلاطون– وحاول تأكيد أن النص الخالص يواصل الحياة؛ لأنه يبقى ماثلاً لحسابه الخاص بوصفه صورة من اللغة المعبرة عن تجربته في الحياة وفلسفته الخاصة. ومعلوم أن جبران عانى من الاغتراب نتيجة لتدهور حال بلاده الشام نتيجة الحروب الأهلية والصراعات التي غرسها المستعمرون طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، الأمر الذي أدى إلى الهجرة والبحث عن يوم جديد، ولقمة عيش لا تعكرها الدماء، ومسحة من طمأنينة البشر، ورغم هذه الهجرة ظل الماضي مستقرًا في ذاكرة شعراء المهجر وخيالاتهم وأحلامهم، فالماضي هو المأساة الأولى التي تفتحت عليها كافة المدارك المحسوسة واللامحسوسة، وإن كانت لبنان بوصفها من أصل فينيقي يحب أهلوها الترحال، فإن الأمر كان أكبر من مجرد البحث عن معالم بلاد جديدة برحلة ممتعة.

واحتك شعراء المهجر بالموطن الجديد، وتعمقت تجربتهم في الحياة، وتعرفوا على ألوان مختلفة من التفكير، واتصلوا بالأدب الإنجليزي، والحياة الإنجليزية، وتأثروا بالرمزية، ومن قبل اتحدت أرواحهم في ظلال الرومانتيكية.

وقد تأثر جبران بالجانب الإنساني الأخلاقي في الشعر الرومانتيكي الإنجليزي من خلال الاطلاع على إبداع كبار الشعراء أمثال: (وليام بليك، كوليردج، شيللي، كيتس، ووردزوورث.. وغيرهم)، فلم يكن توفير المتعة للمتلقي الهدف الرئيسي للشعر عندهم، بل

(١) نقد المذهب الجمالي، هل نستغني عن الصدق؟ ص ١٨.

الكشف عن الحقيقة الإنسانية في أعمق صورها وهو الهدف لمعنى الشعر، فقد كانوا أصحاب قضايا اجتماعية وسياسية، كما كانوا لسان إنسان العصر المتحرر الذي ينادي بحرية الإنسان من حيث هو إنسان، حرية شخصية تجعل من الفرد المتحرر محور العالم وبؤرة اهتمامه، وكان شعرهم تعبيرًا حيًّا عن الحرية في صورتها النقية الخالصة(١). وهذا التأثر نجده في شعر جبران حيث يشترك معهم في التجربة الشعورية التي صنعت شعره، "فظهر هذا الشعر في صورة احتجاج عاطفي على فساد الحياة من حوله"(٢).

وقد صدر جبران –بوصفه رومانتيكي المذهب– عالمه الخيالي مضيفًا إليه نوعًا من المثالية؛ "فيخلق لنفسه صورة ترضيها، لا يهمه فيها أن يتحرى الواقع، ولكن يهمه أن يصور مواطن الجمال التي يحلم بها"(٣). ومعنى ذلك أن جبران انفتح على الآخر في المجتمع الجديد، فكون له مع هذا الانفتاح أدبًا جديدًا، فقد عُرف عند الغرب فنانا رسامًا ثم ناثرًا وعرفه المشرق العربي شاعرًا ناثرًا.

ونتج عن ذلك كله الشعور بالحنين والفقد؛ فلم يعبر جبران عن هذا الإحساس كغيره من شعراء المهجر، بل نجده يُحمّل الكلمة الشاعرة بفلسفة الحنين الخاصة به قبل أن تخرج من قلبه وتستقر في النص الشعري، وهو بذلك حنين عميق يضيف إليه جبران معنى جديدًا في شعر الاغتراب من خلال المحتوى الجمالي الفلسفي.

وقراءة نصوص جبران في هذه الدراسة جاءت وفق المنهج الجمالي الذي يكشف عن القيم الفنية والجمالية التي يكون بها الأدب، وتنطلق من فلسفة ترى أن "الشكل الجميل

(١) انظر: في نقد الشعر، الربيعي، ص٩٩.
(٢) السابق، ص١٠١.
(٣) الرومانتيكية، غنيمي هلال، ص٧٨.

يحتوي على مضمون جميل"[١]، وجبران يعالج مشكلات الوجود خاصة الحنين بطريقة فلسفية تعبر عن الإنسانية التي تحمل كل معنى جميل.

وتهتم القراءة الجمالية للنص بالتركيز على جوانب الفلسفة التي تتبلور في الحق والخير والجمال، وينطلق من الحاسة الجمالية التي تسمو بالإنسان إلى مستويات روحانية بديعة.. وهذا الإحساس بالجمال والتعاطف مع الطبيعة يمثل مضمونًا خصبًا للأعمال الأدبية[٢]، وهذا ما ينطبق على نص جبران الشعري، وما يتصل بالحقائق التأملية والفلسفية في شعره الذي ظلّ يمثل عنصرًا متجددًا في ذاته.

وتقوم الدراسة الجمالية أيضًا على تقصي تجربة الشاعر الإنسانية بأبعادها الفنية، التي تتجاوز ظواهر الأشياء وتنظر في موقف الذات الشاعرة داخل تلك الظواهر، وتتيح للشاعر أن يرسم إطارًا للقيم الجمالية في نصه، وهي: "نسق من المفاهيم، والمبادئ، والمثل العليا التي توجه سلوكنا، وتحدد مواقفنا من أنفسنا ومن العالم على الصعيدين الفردي والاجتماعي، وبها ينضبط إيقاع حياة الفرد، ويتسق مع إيقاع حياة الجماعة"[٣].

أما الدراسات السابقة لهذا الموضوع فلم نجد دراسة مستقلة تناولت فلسفة الحنين في شعر جبران وفق الرؤية الجمالية، بل تعددت زوايا التناول التي اقتربت من موضوع البحث، نذكر منها: دراسة الدكتور خليل حاوي بعنوان: "جبران خليل جبران، إطاره الحضاري، وشخصيته، وآثاره، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م"، وكذلك دراسة سمير السالمي بعنوان: "شعرية جبران (المستمر بين الشعري والفني)، ط١، الدار البيضاء، توبقال للنشر، ٢٠١١م"، ودراسة أخرى بعنوان: "جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، جميل

(١) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، راغب، ص٤٤.
(٢) انظر: المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، ص٦٥.
(٣) الكون الشعري، مدارات ومسارات في التذوق الجمالي، الخليل، ص١٨.

جبر،ط١، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٣م"، وأيضًا دراسة "جبران الفيلسوف، غسان خالد، ط٢، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٣م".. بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت تجربة الاغتراب والحنين عند شعراء المهجر بشكل عام وأفاد البحث منها.

ومن أبرز دواعي هذا البحث، إعادة النظر في فلسفة المعاني وفلسفة الحب والحنين والزمن، من خلال التركيز على إحساس جبران الشاعر بكلية الأشياء، وأنه ضمن هذا الكل في الماضي فهو يحمل في قلبه هذا الشعور وهذا الحنين ويتجاوز واقعه إلى عالم جمالي متفرد.

ومن ثم تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة موضوعات، الأول: في حنين الإنسانية الفلسفي، والثاني: يركز على فلسفة الشاعر في حنينه إلى وطنه المفقود، أما الثالث: فيتناول جمالية الحنين الأيديولوجي وكيف تجاوز جبران التناقضات في واقعه وعبر عنها في عالمه الجمالي.

أولاً: حنين الإنسانية الفلسفي

يتصل الشعر بجوهر النفس الإنسانية، فيتخذه الشاعر وسيلة للتعبير عن تجربته وشعوره بصدق ووضوح وإخلاص، كما يحمل الأفكار الفلسفية الخاصة بالمبدع نفسه، وهذه الأفكار تشمل أسئلة الإنسان المتداخلة مع وجدانه وعواطفه؛ بوصفه –أي الشعر– مرتبطا بخيال الشاعر وفي الوقت نفسه يطرح تساؤلات فلسفية حول مصير هذا الإنسان. فالإنسانية بشكل عام هي: "نظرة واسعة إلى الحياة وإلى الوجود؛ وعلى الأخص إلى المجتمع البشري، وهي الحلم الأكبر الذي يراود أخيلة المفكرين والشعراء والفلاسفة، وكل ذي قلب كبير وضمير حي.. ومن معاني هذه الإنسانية: نشر المبادئ السامية والمثل العليا بين الناس، ومحاربة النظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان"[1].

(١) أدب المهجر، الناعوري، ص٩٤.

وإذا نظرنا إلى الإنسانية بوصفها مفهوما أدبيا سنلحظ أنها تتغير بتغير الزمان والمكان والثقافة وفق الظروف المحيطة، رغم احتفاظها بخصائصها الثابتة، "وغالبًا ما تتداخل الخصائص الثابتة مع الخصائص المتغيرة بحيث يتعذر الفصل بينهما، وعلى هذا نجد أن المفهوم الأصلي للإنسانية يختلف اختلافًا كبيرًا من عصر لآخر ومن منطقة لأخرى"(١)، ووفق هذا المفهوم تقف الإنسانية في منطقة بين المثالية الرومانسية الحالمة المتفائلة، وبين الواقعية النقدية المتشائمة، وهي بذلك لا تخرج عن نطاق علم الجمال وتجسيده في العالم المثالي الذي ينبغي أن يحققه كل نشاط إنساني. فالإنسان يسعى بطبيعته إلى الكمال وهو يعيش الحياة بمختلف تناقضاتها ويواجه آلامها، وفي الوقت نفسه يتسلح بالأمل من أجل الحياة، ولا شك أن الأديب يطمح إلى التغيير والتطوير إلى الأمثل، انطلاقًا من أن الحياة لا تظل ثابتة في مكانها، فالطموح يخرج الإنسان من حدود واقعه إلى المثال الذي يعد امتدادًا لذلك الواقع وليس نقضيه.

وينبثق الحنين بوصفه ظاهرة في شعر جبران من النظرية الأفلاطونية القائلة: "بأن كل ظاهرة دنيوية لها شكل مثالي"(٢)، وهي في شعره أخذت طابعًا فلسفيًا عميقًا عبر فيه عن نفسه وعن اغترابه وحنينه إلى عالم المثل والخلود، وهذه إضافة جديدة تسمح بالنظر في شعر جبران وتوسعه في الحنين وفق نظرة فلسفية خاصة به اعتمد فيها على "إعادة تشكيل ماضيه وتجميله كي يعطي الانطباع بأنّ قدره هو الذي قدّر له أن يكون ما أصبح بالفعل: شاعرًا ورسامًا موهوبًا"(٣).

(١) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، ص٥٨.
(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، وهبة، والمهندس، ص١٧.
(٣) دراسات في الفلسفة، الفكر، الدين، السياسة، الثقافة، الأدب، فراج، ص٢٥٥.

ولأن الإنسان عند المهجريين هو محور الأدب[١]، فقد اتسعت الإنسانية عند جبران وحملت عنده مفهوم الكُل الذي يحتضن الموضوعات الإنسانية المختلفة، فإنسانية جبران لا حدود لها، وهي كلٌ مكتمل حتى بسلبياته، يقول: "وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الإنسانية، روح الألوهية على الأرض، الإنسانية المقدّسة روح الألوهية على الأرض"[٢]. وهنا يكون للعقل الإنساني كشفه الحجب وشغله الفكري وبعده الفلسفي؛ "إن الوحدة الكلية للفلسفة تتألف من استعادة القدرة على التدليل (أو التعبير الدلالي)، وميلاد المعنى، أو المعنى غير المألوف؛ إنها القدرة على التعبير عن الخبرة من خلال الخبرة ذاتها"[٣]، أي في مجال لغة الحنين عند جبران.

والدراسة هذه تركز على فلسفة جديدة نجدها في شعر جبران تميزه عن غيره، فهو لم يعبر عن ذلك الحنين بصورة مباشرة، بل نراه يتماهى كُليًّا فيما يصور، وهو في شعره كلٌ لا جزء، وبإعادة النظر في فلسفة الحب والحنين والزمن في شعره لا نرى عنده اهتمامًا بالآخر[٤]، فلا يعرف الآخر ولا يعاديه رغم الحرقة والأسى، ومن ثم لم يتخذ موقفًا شعريًّا معاديًا من وطنه المشرقي وما فيه من قوى محتلة ومختلة تعمل ضد الوطن نابعة من إيمان مطلق خاص به هو ربما لم يصرح به في جمل وعبارات ولكنه موجود في شعره، لأن الشعر يسمح للحرية أن تتحقق وأن تكتمل، إذ "ينجي الشعر من الفشل بما هو، ويقنع الإنسان بأن هناك مطلقًا، وبأن

(١) انظر: الغربال، نعيمة، ص ٢٥.
(٢) المؤلفات العربية الكاملة، دمعة وابتسامة، جبران، ص٣٦٩.
(٣) أنثروبولوجيا الثقافة، ديورنج وآخرون، ترجمة: عبد الرحمن طعمة، ص٢٥٨.
(٥) يطلق مصطلح الآخر في المعاجم الفلسفية على لفظ "الغير"، فالآخر يرادف مصطلح "غير" (other) وهو: "أحد تصورات الفكر الأساسية، ويراد به ما سوى الشيء مما هو مختلف أو متميز منه ويقابل الأنا، ومعرفة الغير تُعين على معرفة النفس"، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص١٣٣.

هذا المطلق هو الإنسان"[١]، ومن ذلك قصيدته بعنوان: "حرقة الشيوخ" يقول:

يا زمان الحبّ قد ولّى الشباب وتوارى العمر كالظلّ الضّئيلْ
وامّحى الماضي، كسطرٍ من كتاب خطَّهُ الوهمُ على الطّرس البليلْ
وغدتْ أيامنا قيد العذاب في وجودٍ بالمسرّاتِ بخيلْ
فالذي نعشقه يأسًا قضى والذي نطلبه ملَّ وراحْ
والذي حزناه بالأمس مضى مثل حلمٍ بين ليلٍ وصباحْ
يا زمان الحبّ، هل يغني الأملْ بخلودِ النفسِ عن ذكر العهود؟[٢]

فيمثل هذا النص الحنين لفلسفة الزمان مع الإنسان، فمن فلسفات جبران في الحنين عمليات الاستدعاء عنده التي ينكشف معها المعجم بروح الفلسفة الواحدة، فكل معجم الحنين يركز على الماضي، من مثل: (يا زمان، بالأمس، العهود، أيام، الدهور..)، لأن "الماضي له قيمة في حياة الإنسان، إذ هو الذي يحدد أسلوب الحياة"[٣]، ومعروف أن الزمن يحمل الإنسان للحنين إلى أيامه وحياته التي عاشها في السابق، وبذلك فإن "استعادة الماضي إبداعيًا هي الوجه الآخر من التطلع إلى المستقبل.. فاستعادة الماضي لا تعني التقليد الساذج، ولا ترادف الاتباع الجامد، أو قبول كل تغير بسند من الماضي، أو قياس كل آت على كل ذاهب، فذلك إلغاء لاحتمالات التقدم في الحاضر، وتوثين لبعض عصور الماضي بما يضفي معاني السلب على الماضي كله"[٤].

(١) الأنا والآخر والجماعة، دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه، حرب، ص٣٠.
(٢) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٤٧.
(٣) علم نفس الشخصية، ربيع، ص١٧٢.
(٤) استعادة الماضي، عصفور، ص١١، ١٢.

وهذا توجه جديد لفكرة الحنين في شعر جبران، فعملية المزج التي تصل إلى حد التماهي بين الإنسان وعناصر الطبيعة لا يستطيع الخيال أن يفرق بينهما، وكلها تصب في حيز الوطن خاصة في فترة الاغتراب، فكأنه وحده بلا وطن في هذا العالم كما قال المتنبي:

بم التعلل لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ[١]

وكأنه أيضًا في قبر، يتضح ذلك من معجم الموت، وتساؤلات ما بعد الموت، لأن "النزوع إلى الموت هو أقصى درجات الهروب الرومانتيكي من الواقع"[٢]، فهو يحن إلى الماضي ويرى أنه لن يريحه من هذا الحنين إلا القبر:

هل يصمُّ الموتُ آذانًا وعت أنّة الظلم وأنغام السكون؟
هل يغشّي القبر أجفانًا رأت خافيات القبر والسرّ المصون؟[٣]

وفي قوله:

تلك أيامٌ تولّت كالزهور بهبوطِ الثلجِ من صَدرِ الشتاء
فالذي جادتْ به أيدي الدهور سلبته خلسةً كفُّ الشقاء
لوْ عرَفنا ما تركنا ليلةً تنقضي بين نعاسٍ ورقاد
لو عرَفنا ما تركنا لحظةً تنثني بين خُلوٍّ وسُهاد
لوْ عرَفنا ما تركنا بُرْهةً من زمان الحبّ تمضي بالبعاد[٤]

فهو يتمنى أن يعود به الزمان ليعيش تلك اللحظات التي سلبتها يد الشقاء منه

(١) ديوان المتنبي، ص٤٧١.
(٢) دراسات في الفلسفة، الفكر، الدين، السياسة، الثقافة، الأدب، فراج، ص٢٦٢.
(٣) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٤٨.
(٤) السابق، الصفحة نفسها.

بتفاصيلها الجميلة الراسخة في ذهنه، ونراه يكرر في النص: "لو عرفنا" ثلاث مرات لتؤكد حسرة الشاعر وألمه وحرقته لانقضاء زمان الحب وأيام السرور، ونتيجة ذلك:

قد عرفنا الآن، لكن بعدما هتف الوجدان: "قوموا واذهبوا"[١]

إن قيمة فلسفة الحنين في هذا النص ليست للماضي فقط، بل هو حنين ممزوج متماهٍ مع صور إنسانية وزمانية ومكانية تستقطب كل طاقات جبران -الشاعر المفكر الفيلسوف المثقف الرسّام- في سعيه لبناء وطن مثالي قائم على الصور المجردة وإن أحال الخيال إلى صور مادية، فجبران "يعجز عن أن يتمثل الفكرة ويتملى الإحساس دون أن يتصورهما، فكأنه يفكر ويحسّ من خلال الصور وحدها، ما تكاد الخاطرة تلمع في رأسه حتى تشف عن صورة، ولا يتم انفعاله ولا يستنفد حتى يتجسد في صورة أو أكثر، فالصورة عمود التعبير عنده، وتوشك أن تكون غايته أيضًا في كثير من الأحيان"[٢]، بالتالي ففكرة الحنين تنطلق عنده من الإحساس بشمولية الإنسان وشمولية النص.

ونقرأ قصيدة أخرى له بعنوان: "بالأمس"، يقول فيها:

كان لي بالأمس قلبٌ فَقَضَى وأراحَ النّاس منهُ واستراحْ
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضَى بين تشبيبٍ وشكوى ونواحْ
إنّما الحبّ كنجم في الفضا نُورُه يُمحى بأنوار الصباحْ
وسرور الحب وهمٌ لا يطول وجمالُ الحبّ ظلٌّ لا يقيمْ
وعهود الحبّ أحلامٌ تزولْ عندما يستيقظُ العقلُ السليمْ[٣]

يعكس النص السابق موضوعًا من أهم موضوعات الإنسانية وهو الحب، ذلك

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) النثر المهجري، المضمون وصورة التعبير، الأشتر، ص١٩١.
(٣) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٦٢.

الشعور الإنساني الذي يبعث في القلب الطمأنينة، وكأن الحب في هذا النص عبارة عن كائن ليلي (نجم في الفضا) يذهب في الصباح، وهذه صورة عكسية لفكرة الحب عند جبران ولفلسفة الحنين لهذا الحب و(عهود الحب) و(سرور الحب) بنفي الحب والإصرار على أنه لا يوجد حب وهو في نظره نور يمحى بطلوع الصباح، وظل لا يقيم، وأحلام تنقضي باستيقاظ العقل، ولكنه في المقابل هو حنين لحب مفقود، وحنين للحب النقي الصافي في الوطن الأول الذي يفتقده في حاضره، ويدخل ضمن هذا الحنين الوطن المفقود، الحب المفقود، الناس المفقودون.

ويقول:

وسقامي هامس في مسمعي: "من يريد الوصل لا يشكو

تلك أيامٌ تَقَضَّتْ، فابشري يا عيوني، بلقا طيفِ الكَرَى

واحذري يا نفس، ألاّ تذكري ذلك العهد وما فيه جرى

كل هذا كان بالأمسِ، وما كان الأمسِ تولّى كالضّبابْ

ومحا السلوان ماضيَّ كما تفرطُ الأنفاسُ عقدًا من حبابْ[1]

إن تجزيء الجسد في هذا النص حنين في حد ذاته: (مسمعي، عيوني، الأنفاس..) وما يقابله من صور مستقلة تعكس وعي جبران الخاص، فالنص يحمل صورة موازية من عناصر الطبيعة يتمثل فيها شكل من أشكال الحب الذي يرجوه، "بوصفها كائنًا حيًّا لا منظرًا خارجيًا ميّتًا"[2]، فهو يمتزج مع الطبيعة ويتفاعل معها مكونًا صورًا خيالية لعالم خاص به

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٦٣.

(٢) الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، عوين، ص٦٨.

تنطلق منه فلسفة جديدة، دفعه إلى ذلك الشعور بالعزلة والسعي إلى إيجاد عالم آخر يهرب به من أزمة الواقع والفكر والشعور، ولأن جبران شاعر رومانتيكي فمن الطبيعي أن تنطلق فلسفته في الحنين من "الإيمان المطلق بالخيال.. وأن كل صدّ لهذه القوة الخالقة قتل للقوة الحيوية في الإنسان، وأن الشعر لا يكون في أقوى حالاته إلا إذا أرخى لهذه القوة الزمام"[١]:

كنتُ إن هبَّتْ نُسيمات السَّحر أتلوى راقصًا مِن مرحي
وإذا ما سكبَ الغيمُ المطرْ خلتُهُ الرّاحَ فأملا قدحي[٢]

وتبرز قمة الحنين في قوله:

ليت شعري! هل لما مرّ رجوع أو معادٌ لحبيب أو أليفْ؟
هل لنفسي يقظَةٌ بعد الهجوعْ لتريني وجهَ ماضيّ المخيف؟
هل يعي أيلولُ أنغامَ الرّبيعْ وعلى أُذنيهِ أوراق الخريفْ
لا، فلا بعثٌ لقلبي أو نشور لا، ولا يخضرّ عود المحفلِ
ويد الحصّادِ لا تُحيي الزهورْ بعد أن تُبرَى بحدّ المنجلِ[٣]

فنراه يتحسر على تلك الأيام التي انقضت، ويتكلم عن نهاية الحب، ويحاول استيعاب الواقع بتكرار أسلوب الاستفهام "هل؟"، كما يشخص عناصر الطبيعة (الربيع، الخريف، الزهور) التي تتماهى مع أجزاء الجسم في النص (وجه، أذنيه، قلبي)، وهذا معناه أن روح الشاعر المفتتة ونفسه المجزأة ترى أن الموت هو المهرب الوحيد من هذه الحالة؛ لأن الحب المفقود لن يراه إلا بالموت:

(١) فن الشعر، عباس، ص١٤٧.
(٢) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٦٣.
(٣) السابق، ص٦٦٤.

تلك حالي فإذا قالتْ رحيل: ما عسى حلّ به؟ قولوا: الجنونْ
وإذا قالتْ: أيشفى ويَزولْ ما بهِ؟ قولوا: ستشفيه المنونْ[١]

فهذه الفلسفة الجبرانية هي فكرة كونية تمتزج فيها عناصر الطبيعة مع الحنين للحب المفقود والوطن المفقود، "لأن اغتراب الفنان عن المجاري العادية للحياة يدفعه إلى تلمس الأشياء من بعيد تمردًا على هذه الأشياء ونشدانًا للمجهول"[٢].

وتتضح إنسانية جبران المدهشة في "أغنية الليل" حيث يضع نفسه داخل الطبيعة وهو مطمئن أنه لا شيء يضيع، ويعبر عن اشتياقه لمحبوبته، وهي غالبا وطنه، ويدعوها إلى الهروب معه من الواقع إلى الطبيعة، وكأنه مثالي إلى درجة أنه يتجاوز المثالية إلى مثالية الخُلق، رغم الآلام التي عاناها فلم يشكُ الألم، وهو في حنينه منتظر، وهذا يؤكد جنوح جبران إلى الخيال لأن "المثالية الهروبية مرتبطة أشد الارتباط بالرومانسية المتطرفة وأدب العاطفة المسرفة التي تهرب من مواجهة حقائق الحياة باجترار الأحلام الجميلة"[٣]، كما تخلق عالمًا كله أوهام جميلة يعيشها الشاعر:

سَكَنَ الليلَ وفي ثوبِ السكونْ تختبي الأحلامْ
وسَعَى البدرُ وللبدرِ عُيَونْ ترصُدُ الأيامْ
علّنا نطفي بذيّاك العصير حرْقةَ الأشواقْ
فتعالي يا ابنةَ الحقل نَزُورْ كَرَمة العشَّاقْ[٤]

إن في هذا النص نرى الليل في ثوب السكون تختبئ فيه الأحلام، وعيون البدر تسعى

(١) السابق، ص٦٦٥.
(٢) جبران الفيلسوف، خالد، ص٢٦٢.
(٣) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، ص٣٧.
(٤) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٥١.

لرصد الأيام، فالطبيعة تشاركه هذا الحنين ويدعوها إلى أن تبادله نفس الشعور، فالليل صديقه الذي يتجاوب معه ويكتم أسراره، فغربة جبران ووحدته تأتي مع وحشة الليل وظلامه، فكلاهما يحمل نفس الهدف، "لذلك فلا عجب أن نسمع جبران يكثر من ذكر الوحدة والوحشة، وأن نراه لا يلذ له من وصف مناظر الطبيعة إلا ما كان فيه معنى الوحدة والوحشة والسر، هكذا فالليل وما في ظلامه من الوحشة، وما في أشباحه من الرهبة، وما في سكينته من الأسرار، هو أحب الرموز إلى جبران"(١).

وترتقي فكرة هذا النص إلى معان خاصة بالشاعر، فمثلاً في قوله: "ذياك العصير.. فتعالي.."، نداء خفي يعكس الحنين المطلق إلى كل جميل كان فيه وعاشه، فحرقة الأشواق والإحساس بالمرارة والحزن تنطفي بذياك العصير. والطبيعة في هذا النص جزء من الماضي لا ينفك يذكر الحب مع خطاب المؤنث، فالحبيبة العشيقة التي يراها نشأت وكأنها وردة، فالكُل هو وحبيبته من ذلك الكل في فلسفة الحنين، حتى عندما ينادي "ابنة الحقل" بقوله: "فتعالي" هو في حنين مستمر إلى حالة من حالات عدم النسيان.

إن طلب الحب في هذا النص فكرة عبقرية لأن فلسفة الحنين عند جبران مرتبطة بعالم الأسرار، "فحاجة الإنسان لأن يبقى على جزء من حياته الخاصة بعيدًا عن الآذان، أو عيون الآخرين احتياج بشري يحاول بقدر الإمكان أن يحتفظ به دون تدخل من الآخرين"(٢)، وهذا شغف إنساني خاص بكل إنسان عبر عنه الشاعر وفق إحساسه بالحزن المسيطر على نفسيته، فالحب ينبع في نظره من عالم خفي يتصل بإحساسه بالموجودات.

وجبران في حنينه للحب لم يكن تقليديًا، فموضوع الحب قد طرقه الشعراء السابقون في

(١) شعراء الرابطة القلمية، سراج، ص ١٧٠.
(٢) الإنسان وعلم النفس، إبراهيم، ص١٩٠.

قصائدهم، ولكنه في عالمه الجديد عبّر عنه بصورة فلسفية تتجاوز الوصف الحسي كما كان عند الأقدمين، إذ نجد فلسفة الحب عنده قائمة على "أنا الآخر، والآخر أنا" وهذا بعد صوفي فهو لا يرى العدو، يفسر ذلك أنه ليس له أعداء فلم يهاجم العدو رغم أن هذا العدو المستعمر طردهم من ديارهم وشردهم فعانوا مرارة الحياة، بالتالي لم يشر لهذه الفلسفة أحد من قبله.

أما في قصيدته: "سكوتي إنشاد"، فنراه يخاطب ذاته ويعبر عن حنينه وعن معاناته الداخلية وتناقض أحاسيسه الباطنية فسكوته يصرخ بمشاعره، كما ينقل إلينا ألمه الذي يتأرجح بين الهم والغربة من خلال إدراكه لقيمة التصوير، فالقصيدة من العنوان إلى النص تحيل إلى ألفاظ تصف حالة الشاعر الإنسان وترسم الأبعاد النفسية والشعورية له، يقول:

سُكوتي إنشادٌ وجوعيَ تخمةٌ ... وفي عطشي ماء وفي صَحوَتي سُكرُ
وفي لوعتي عُرسٌ وفي غربتي لقًا ... وفي باطني كشفٌ وفي مظهري سترُ
وكم أشتكي هَمًّا وقلبي مُفاخرٌ ... بهمّي، وكم أبكي وثغريَ يفترُ
وكم أرتجي خِلاًّ وخلّي بجانبي ... وكم أبتغي أمرًا وفي حوزتي الأمرُ
ولمّا سألتُ النفسَ ما الدّهرُ فاعلٌ ... بحشدِ أمانينا أجابتْ أنا الدّهرُ(١)

إن مجموع ثنائيات الإنسانية القائمة على التضاد والمفارقة التصويرية هي المكون الإنساني الأساسي الذي يعني أن الإنسان في مرحلة معينة وفي حالة شعورية خاصة مُكونٌ من هذه المتضادات المختلفة التي تؤكد أن باطن الشاعر حقيقة وظاهره لا يعكس حقيقته: (سكوتي-إنشاد، جوعي-تخمة، عطشي-ماء، صحوتي-سُكر..).

ومما سبق يتضح وعي جبران بقيمة الشعر الذي يحمل فلسفته في الحنين فنجده يتصالح ويتسق مع ذاته الإنسانية، وهذا التصالح ينطلق من الحاضر، ويرى بذلك ضرورة العودة إلى

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص ٦٣٨، ٦٣٩.

الوجود الإنساني المثالي الخالي من الزيف الذي أضيف إليه من متغيرات الحياة، ساعدته البيئة الجديدة فقد أتاحت له حرية التعبير وجعلته يحلق في سماء المثالية الحالمة ويشعر بالطمأنينة فيها.

ثانيًا: فلسفة الحنين للأوطان

يمثل الشعر نوعًا معينًا من التفلسف، الذي "لا نستطيع أن نتحاشى فيه صورة القضية، أي تلك البنية المنطقية للإسناد التي يتم فيها إسناد محمول ما إلى موضوع معطى"(١)، فالنص الفلسفي يؤسس موضوعه بذاته وفق تصورات تتجسد داخله، لأنه "بناء فكري ولغوي، حيوي ومتعدد، ينفتح على عوالم دلالية ونظرية تبلغ أقصى مراتب التجريد، هو نص لا يكشف بسهولة عن انتماءاته ومرجعياته وميوله"(٢)، معنى ذلك أن النص الفلسفي يرتبط ارتباطًا حميميًا بثقافة صاحبه وتوجهاته وأفكاره وطموحاته، فهو نص قادر على التجدد والتنوع، وفق رؤية خاصة ترى أن الشعر يعيد الحياة، فهو: "صياغة جديدة للواقع، فيها الجمال وفيها المعرفة أيضًا، كثيرًا ما حلم بعض الشعراء بكتابة قصيدة تشبه الحلم، وكلما كانت القصيدة أقرب إلى طبيعة الحلم زادت فتنتنا واعترفنا بشاعريتها"(٣).

إن قوة الشعر الفلسفي الجمالي تكمن في قدرته على تجديد نفسه في كل العصور، باعتباره شعرًا متصلًا بالفلسفة والجمال فهو متجدد؛ لأنه يخاطب عقل الإنسان وتأملاته، وإذا نظرنا في شعر جبران وجدناه خاضعا لرؤية فلسفية خاصة به تدور في فلك فلسفة الوجود التي دفعته إلى تحديد مفهوم الوطن الرمزي بشكل خاص.

والشعر والفلسفة صورتان للتعبير عن الواقع، والجمال يتحقق في موجودات مختلفة

(١) تجلي الجميل، ص٢٧٨.
(٢) الفلسفة والنقد، ص٢٤.
(٣) الشاعر والطفل والحجر، عبد السميع، ص١٢.

عن واقع المحسوسات، انطلاقًا من رؤية "أن الجمال من لواحق الوجود حقًّا، أي أن كل موجود فهو جميل"(١)، وأن الأصل في الوجود الوحدة والحق والخير والجمال بمعناها الفلسفي، وبذلك وجد جبران ضالته في عالم أكثر جمالاً هو عالم الأفكار والمُثل، هربًا من الواقع الذي لم يحقق له أحلامه وآماله، ولم يشعر فيه بالأمن والاستقرار والمحبة والألفة، فهو يرى في هذا العالم الحرية المطلقة والسعادة الأبدية.

وقبل الدخول في دراسة فلسفة جبران في الحنين للأوطان، لا بد من الإشارة إلى ما وصل إليه الشرق من تدهور في الأوضاع السياسية والاقتصادية، فقد "ظل الشرق العربي على امتداد القرن التاسع عشر مسرحًا لصراعات مستمرة وعنيفة، بين قوى متعددة، داخلية وخارجية سياسية ودينية، وعرف ألوانًا من المذابح الأليمة بين الدروز والموارنة في لبنان، وبين المسلمين والأرمن في دمشق"(٢)، الأمر الذي أدى إلى هجرة الكثير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والبحث عن لقمة عيش هنية، بعيدة عن القتل والدماء، حيث هاجر كثير من اللبنانيين والسوريين، بماضيهم الذي لم يدعهم، بل تحسس موطن ضعفهم، ثم استقر في ذاكرتهم وخيالاتهم وأحلامهم، فكان الماضي هو المأساة الأولى التي انتقلت معهم، وإن كان أهل لبنان يحبون الترحال، فإن الأمر كان أكبر من مجرد البحث عن معالم بلاد جديدة برحلة ممتعة، "فالعربي اللبناني والسوري الذي نزح عن دياره، يحمل بين جنبيه طموحًا أعرض من الفضاء، وآمالاً أطول من أشعة الشمس"(٣)، فرغم المعاناة والتشريد نراه يسعى إلى تثبيت جذوره التي اقتلعت من دياره، فكان عليه أن يؤسس لعلاقات جديدة في المجتمع الجديد.

وتعد طائفة الشعراء أشد المهجريين إحساسًا بعمق المأساة، ربما تساووا في الإحساس

(١) العقل والوجود، كرم، ص١٢٥.
(٢) الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، مكي، ص١٢٩.
(٣) أدب المهجر، ص٧٩.

بالفجيعة، ولكنهم اختلفوا في طرق التعبير عنها، فكل شاعر في المهجر الأمريكي بشقيه (الشمالي والجنوبي)، قد صاغ ألحانًا باكية حزينة يتخللها الحنين الصادق اللاعج، والشعور العميق المتفجر بالعاطفة المضطربة، وهي فريدة في الأدب العربي إذ لا نجد الحنين بهذه القوة والرقة إلا في شعرهم، ورغم قسوة المحن، فلم يذهب الزمن "بروحهم الشاعرة، ولا جفف ينابيع الإبداع في مواهبهم المتفتحة، وإن لون شعرهم بطابع الحياة التي اصطخبوا فيها، وذلك هو الصدق بعينه"(١).

احتك شعراء المهجر الأمريكي بالموطن الجديد، وفي كل يوم كانوا يزدادون تجربة من الحياة تضيف لهم لحنًا جديدًا، نراهم يتعرفون على ألوان الحياة والتفكير من حولهم، ويتصلون بغيرهم من الآداب، فمثلاً: اتصالهم بالأدب الإنجليزي والأمريكي والإسباني، والحياة الأمريكية شمالا وجنوبا، وتأثرهم بالرمزية في ظلال الرومانتيكية. وانعكس هذا التجديد على شعر الحنين، وبرزت في شعر المهجر عناصر رمزية تخفي وراءها أو تحمل في طيّاتها الإيماء إلى دلالات أعمق وأهم، وكان الشاعر في المهجر يعيش اغترابه، ويقتات بمشاعر الحنين إلى وطنه، فالغربة قدره ومأساته، وهي كُل حياته وكلّ شعره، ففتش الشاعر عن أمنه الذاتي في الطبيعة، والحب، وغيره(٢). ويؤكد ذلك أن "الحنين إلى الوطن قوة سارية في الشعر المهجري .. ترتكز على معنى الغربة حقيقة ومجازًا، والغربة هي المحرك الأكبر في أشعارهم جميعًا"(٣).

ولأن الوطن مطلب إنساني بالدرجة الأولى؛ فهو يحقق الأمان لكل ساكنيه، فالإنسان لا يأمن الحياة إلا في وطن قوي وآمن، وجبران الشاعر حين يهزه الشوق والحنين إلى ذلك

(١) الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، ص١٣٠.
(٢) انظر (بتصرف): التجديد في شعر المهجر، داود، ص١٧٤.
(٣) الشعر العربي في المهجر (أميركا الشمالية)، عباس، ونجم، ص١٢٩.

الوطن نراه يتذكر أحبابه وأهله ووطنه (لبنان)، وغالبًا ما يكون هذا الحنين سببًا في عذابه، فالمثيرات ما هي إلا "واسطة يختلقها خيال الشاعر؛ لاستحالة تحقيق رغبته، وهي عنصر أساسي لتحقيق التوازن النفسي، وربط الصلة المقطوعة بين الذات والموضوع"(١)، وهذه المثيرات تتجلى في شعر جبران بصور مختلفة ترتبط عنده بالطبيعة والغاب. وفي نفس كل شاعر مهجري حنين لا ينقطع، وشوق لا ينفد(٢)، فهذا جبران يُحمل كلمته بقيم فلسفة الجمال والتاريخ التي تعبر عن الألم والمعاناة والهجرة من الأوطان، فكلمة جبران ليست فارغة بل لها صياغتها الفكرية، ونغمتها الخاصة التي تميزها عن غيرها، فهي ضمن سياق فلسفي يتحرك "في إطار المُثل، وعبر المُثل، ونحو المُثل"(٣).

وتواجهنا قصائد جبران من الوهلة الأولى بوحدة الخيال فيها، وهذه الوحدة تتلاءم مع شعرية متخيلها ولغته، "فلا نكاد نصادف في مجمل إنتاجه الأدبي والفني، على السواء، مشهدًا من مشاهد الحضارة المدنية التي انتمى إليها، ولا خلفية بصرية من خلفيات الحداثة العمرانية التي عاش في قلبها، في باريس أو في نيويورك أو في بوسطن مثلاً"(٤)، وهذا يؤكد أن ذات جبران عميقة تحمل في داخلها الأحلام والأهواء والتطلعات باتجاه "ما يتركز كذوق جمالي شعري، أو كقناعة فكرية فلسفية"(٥).

إن الوطن في شعر جبران يتحول إلى قيمة في النفس، فرغم المصائب هناك حنين جارف يبدو في بناء شعره، فشعرية الخطاب الجمالي تخلد ذكريات الوطن في صورة مثالية، فيخلق عالمًا جديدًا وواقعًا جماليًا مستندًا إلى قوة الخيال.

(١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، طحطح، ص٢٩٢.
(٢) انظر: قصة الأدب المهجري، خفاجي، ص٣٣١.
(٣) تجلي الجميل، ص٢٧٨.
(٤) شعرية جبران، المستمر بين الشعري والفني، السالمي، ص١٣١.
(٥) المرجع السابق، ص١٣١.

وتمثل قصيدته "المواكب" الفلسفة الجمالية التي انسابت على كل فكرة من أفكار جبران تجاه الوطن والإنسانية، فهي محمّلة بالشوق والتغني بجمال لبنان، "لأن المواكب أول محاولة لفلسفة الحنين اللاعج في صدر الشاعر المغترب، وتحويله من زفرات غنائية بسيطة ولمحات عاطفية انفعالية، إلى تأمل ونظر ومقارنة متفلسفة؛ لأنها أول مطولة شعرية ترتكز على محور الطبيعة وتفكر من خلالها في مشكلات الحياة وقضايا الوجود والعدم والقيم الإنسانية"(١).

ويرمز جبران لوطنه في "المواكب" بكلمة "الغاب" وهو مكان شديد النقاء والخضرة والجمال، ويتخذه جبران أصلاً جديداً لوطنه الأصلي "لبنان"، وبذلك يصبح الوطن رمزًا يتمثل في كلمة "غاب"، ويكتمل في بناء الوعي الداخلي لجبران، فالرمز هنا يعني خلاصة الفكر المتبلور في كيان الإنسان فكلما تكلم توجه إليه. فيبني جبران الوطن الجمالي وفق فلسفة جمالية ما تبنى على وحدة الخيال، "فهذه الوحدة تتمثل على أتمها فيما يسميه جبران "الغاب"، وفي الذهاب إلى الغاب انعتاق من الثنائية وانطلاق إلى اللامحدود، ومعانقة للمطلق، متمثلة كلها في تلك الفرحة الدعوية التي تصاحبها نغمات الناي، تلك النغمات التي تتجسد فيها الوحدة الكونية كلها"(٢)، فقد اختار هذا الطريق ليثبت عكس ما هو موجود فعلاً، بصورة مثالية رغم أن الوطن في واقعه ليس مثاليًا.

ومواكب جبران تطلعنا على موقفه من الطبيعة، فهي مقطوعات، "في كل مقطوعة يفتش بذهنه عن عيب من عيوب الحياة الإنسانية، أو مشكلة من مشكلاتها، ويقدمها منظومة بلغة تقريرية مباشرة.. ثم يضع "الغاب" في مقابل المجتمع الإنساني، المنقسم على نفسه.. في رباعية يقرر فيها أن الغاب تذوب فيه الحدود والفواصل المصطفة في عالم البشر.. فلا خير في

(١) الشعر وهموم الإنسان المعاصر، عمارة، ص١٦٤.
(٢) الشعر العربي في المهجر (أميركا الشمالية)، ص٤١.

الغاب ولا شر، ولا عدل ولا ظلم، بل في الغاب الحياة كاملة موحدة لا تعرف الانقسام.. ثم يقفي على ذلك ببيتين هما نهاية المقطوعة، يتقرر فيهما أن النغم هو مثابة الكمال المطلق، فهو العدل الكامل، وهو الخير الخالص، وهو السعادة المثلى"[١].

وحنين الشاعر إلى "الغاب" ما هو إلا نوع من أنواع الاغتراب الفلسفي، والشعور بالوحدة والعزلة في العالم الجديد، دفعه إلى هذا النزوع الفلسفي أمنياته وأحلامه التي لم تتحقق فانطلق إلى عالم المُثل محاولاً البحث عن وطنه المفقود، فالغاب –في خيال جبران– رمز إلى جوهر الحياة الواحد، "فالغاب رمز حياة مثالية متحررة من الوهم والنفاق، قائمة على العدالة والحب والجمال والسعادة – وقبل كل شيء: على الأخوة"[٢]، وعلى ذلك فالغاب هو الحياة، وهو الوجود بأكمله، بعيدًا عن المقاييس بين الناس في القسوة والرحمة، أو العدل والظلم، أو الحب والكره، ففي الغاب تقادير لا تتغير بل تتساوى فيه كل الأمور:

العيشُ في الغابِ والأيام لو نُظمتْ ... في قبضتي لغدتْ في الغاب تنتثرُ
وللتَّقادير سُبُل لا تُغيرُهَا ... والناس في عجزهم عن قصدهم قصُرَوا[٣]

ويقول:

ليسَ في الغاب رَجَاءٌ ... لاَ ولاَ فيهِ المَلَلْ
كيف يرجُو الغاب جُزءًا ... وعَلَى الكلِّ حَصَلْ؟
أعطني الناي وغنِّ ... فالغنَا نارٌ ونُورْ
وأنين الناي شوقٌ ... لا يُدَانِيه الفتور[٤]

(١) الطبيعة في شعر المهجر، داود، ص٧٤.
(٢) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، فتوح، ص١٩٠.
(٣) المؤلفات العربية الكاملة، ص٣٩٠.
(٤) السابق، ص٣٦٨.

ويكشف هذا المقطع من قصيدة المواكب فلسفة حقيقية في ذهن جبران، فعندما يشعر بالاستسلام والصبر على تلك الحياة يدعوه الحنين لشيء من الطمأنينة والبعد عن الحيرة والقلق والاضطراب، فهو مستسلم حُر يعرف كيف يدور الزمان، فنافخ الناي واعٍ إلى تلك الحياة التي اقتنع بها في واقعه، "وما الناي الذي ينفخ فيه سوى رمز الروح الذي تلتقي فيه كل الأرواح فتؤلف لحناً واحدًا كاملاً لا نفار فيه ولا تشويش"(١)، وهذه الحياة كُل لا جزء، والرجاء والملل منبعها واحد، والشوق في تلك الحياة لا ينتهي ولا يفتر.

وبين "المواكب" و"الشحرور" قرار وجواب(٢)، يقول في "المواكب":

أعطنـــي النـــاي وغـــنِ فـالغنـا ســـرُّ الخُـلـودْ(٣)

وقصيدة "الشحرور" تنطلق قرارًا للمواكب في قوله:

أيّهـــا الشّحـرُورُ غـــرّد فـالغِنـــا ســـرُّ الوجـودْ(٤)

ونراه في "الشحرور" يتكلم عن نفسه ويكرر "ليتني" مع بداية كل مقطع، ويمزج حنينه بعناصر الطبيعة من: (غاب، وسحاب، وهضاب..)، في بناء مكتمل يخاطب فيه "الشحرور" ذلك الطائر الصغير الحُر الذي يملأ الكون جمالاً وأنغامًا ويتمنى أن يكون مثله ليبسط جناحيه ويحلق في الفضا:

ليتنـــي مثلـــك رُوحًـــا في فضـــا الـــوادي أطـــيرْ

(١) جبران خليل جبران، نعيمة، ص٢٢٤.

(٢) وهو: من مصطلحات الموسيقى، فالجواب هو: "كل مرتبة من مراتب الصوت هي جواب لما دونها وقرار لما فوقها، وصوت الجواب أعلى من صوت القرار غير أنه أرق منه"، أما القرار فهو: "كل مرتبة من مراتب الصوت هي قرار لما فوقها وجواب لما دونها وصوت". معجم الموسيقى العربية، محفوظ، ص٧٣، ٩٣.

(٣) المؤلفات العربية الكاملة، ص٣٨٩.

(٤) السابق، ص٦٥٥.

أشـــربُ النـــورَ مدامًـــا في كـــؤوس مـــن أثـــيرْ[١]

ويأتي في القصيدة ذكر "الغاب" –بوصفه وطنًا مثاليًا– امتدادًا لفلسفة الحنين عند جبران، ويتمنى أن يسكب الأنغام داخل ذلك العالم:

ليتنـــي مثلـــك فكـــرًا سابحًـــا فـــوق الهضـــابْ
أسكـــب الأنغـــام عفـــوًا بـــين غـــابٍ وسحـــابْ[٢]

وإذا كان "الغاب" في شعر جبران ينبع من عناصر الرومانتيكية، فإن البحر كذلك، وهذا "بعض ما اعتاده الرومانتيكيون من إسقاط مشاعرهم على مظاهر الطبيعة، بحيث تحل في الشاعر كما يحل هو فيها"[٣]، وحديثه عن "البحر" حديث تأمل، يعكس عمق فكره، فهو يتطلع نحو الأفق البعيد، في اندماج نفسي، ومزاج سوداوي تمليه عليه الوحدة والكآبة والوحشة، وقصيدته "البحر" تحمل فلسفة خاصة تعبر عن مكانة البحر عنده، وامتلاك البحر لكل شيء حتى الفكر:

ويقول الفكرُ: إنِّي مَلِكُ ليسَ في العالم غَيرى مِن مَلِكْ

غير أنَّ البحرَ يَبقَى هَاجِعَا
قائـــلاً في نومـــه: الكـــلُّ لي[٤]

والبحر هو الوطن الحقيقي والمثالي عنده، يتضح ذلك من خلال الحوار بين عناصر الطبيعة، فهو يريد أن يقول: إن عناصر الطبيعة تتصارع مع البحر في إثبات نفسها أمامه، ولكن الغلبة تظل لمن يستحق دون أن تتغير موازين الكون، وكأنه ينقل صورة مثالية الصراع

(١) السابق، الصفحة نفسها.
(٢) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٥٦.
(٣) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص ١٨٩.
(٤) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٥٤.

المفتقدة عند الإنسان، ويرى أن الناس في الوطن المفقود تدعي أن كل شيء لها، والحقيقة أنهم يدمرون الإنسان.

وتتسع فلسفة الحنين عند جبران فهي لا تقف عند حد الوطن المثالي، بل نراه يحن إلى الصراع المثالي، ويتمنى أن الإنسان مثل عناصر الطبيعة يدعي ما يشاء ولكنه يترك لغيره أصله وحقيقته، وهذه فكرة مثالية، فمثلاً النهر يدعي ولكن البحر هو الأصل، وفي كيانه ثقة مطلقة، فهو (صامتًا، ساكتًا، هادئًا..):

ويقول النهر: ما أعذبني مشربًا يروي من الأرض الظما

غير أنَّ البحرَ يَبقَى صامتًا
قائلاً في ذاته: النهرُ لي[1]

أما قصيدة جبران الشهيرة "البلاد المحجوبة"، فتؤكد فلسفة الحنين للوطن الخيالي المرسوم في ذهنه لا في واقعه، وينطلق في ذلك إلى عالم المثل والخلود حيث الحق والجمال والعدل:

يا بلادًا حُجِّبت منذ الأَزلْ كيف نرجوك ومن أي سبيل؟
أي قفر دونها أي جَبَل سورها العالي! ومن منا الدليل؟
أَسَرابٌ أنت أم أنت الأمل في نفوس تتمنى المستحيل؟
أمَنَامٌ يتهادى في القلوب فإذا ما استيقظت ولَّى المَنَام؟
أم غُيُومٌ طفن في شمس الغروب قبل أن يغرقن في بحر الظلام!
يا بلاد الفكر يا مَهد الألى عبَدوا الحق وصَلّوا للجمال
ما طلبناك بركب أو على مَتن سُفن أو بخيل ورحال

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٥٤.

لست في الشرق ولا الغرب ولا في جنــوب الأرض أو نحــو
لست في الجو ولا تحت البحار لست في السَّهل ولا الوعــر
أنت في الأرواح أنوار ونَار أنت في صَدْري فؤادٌ يختلج[1]

ويتجلى الحنين للوطن المثالي في هذه القصيدة، فالوطن الإنساني هو الذي يحمل كل جميل، فهو مكان لا مثيل له في الواقع أو الوطن أو الحياة الشاملة، بل في ذهن الشاعر (لست في الشرق ولا في الغرب) بل هذا الوطن يستقر في روح جبران وفؤاده.

وتبرز ظاهرة تخيل عناصر الطبيعة بوضوح في هذا النص؛ فهي وسيلة الشاعر في التعبير حيث يضع الطبيعة مكان الإنسان، وعليه فالمعاناة تحولت إلى معان مجازية لا توجد لها ملامح إلا الأحزان، ويلمح البلاد ترى نور الصباح من غسق الليل، والبلاد المحجوبة تحول الوطن من كل عناصر المأساة إلى وطن محجوب غير موجود فهو يشكو إلى وطن يرجو أن يتحقق بالخيال، ويتحول من خلال فلسفة الحنين من الوطن الحقيقي إلى وطن مثالي بناه بواسطة الخيال.

ثالثًا: فلسفة الحنين والجمال الأيديولوجي

يبرز الأثر الأيديولوجي في الأدب بفعل المتغيرات الأيديولوجية والتطورات التي تنقل الأدب من دلالته التقليدية إلى دلالة أرحب وأكثر عمقًا، فالأيديولوجيا "تشير إلى الطريقة التي يعيش بها البشر أدوارهم في المجتمع الطبقي، أي تشير إلى القيم والأفكار والصور التي تقيدهم بوظائفهم الاجتماعية؛ فتمنعهم من المعرفة الصحيحة بالمجتمع في مجموعه.. والفن كله ينبع من تصور أيديولوجي"[2].

(١) السابق، ٦٤٦،٦٤٥.
(٢) تيارات نقدية محدثة، عصفور، ص٣٥.

إن مفهوم الأيديولوجيا بالنظر إلى ما تؤديه هذه المفردة في سياقاتها الفكرية والفلسفية، تعني "علم الأفكار، أو نظام من الأفكار والمفاهيم الاجتماعية.. أي مجموعة التصورات التي تعبر عن مواقف محددة تجاه علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالعالم الطبيعي، وعلاقته بالعالم الاجتماعي، وهي بهذا توازي مصطلح العقيدة، وإن يكن مصطلح العقيدة يتصل بالدين، وهي تتصل بقيم سياسية اجتماعية ثقافية.."[١].

وعن العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا وبالتحديد بين الشعر كخطاب جمالي فنّي، وبين المكون الأيديولوجي في غايته الاجتماعية، نلحظ تفاعلاً وحضورًا للأيديولوجيا داخل النسيج الشعري، وهذا النسيج لا يتحدد بمعزل عن التفاعل الأيديولوجي للشاعر مع الوجود والحياة، ونعني به "تفاعل الرؤى، والعقائد، والتأملات، والمنظومات الفلسفية في فكر المبدع لنستشف من خلالها نمط تفكيره، وإستراتيجيته الفكرية، ونظرته الأيديولوجية للحياة، وطبقة الخلق والكون، بمعنى أدق يحدد لنا ما هي المسلمات الوجودية في سيرورة إستراتيجية الكثير من قصائده الشعرية، ومكنوناتها الدلالية، ووجهة نظره في مجرى الأحداث الملتقطة، وتوجيه مسارها باتجاه فكري، أو نمط أيديولوجي معين"[٢].

وبذلك فالتفاعل الأيديولوجي يحدد طبيعة الشخصية المبدعة، وتطلعاتها وآمالها وأفكارها الوجودية تجاه كثير من القضايا، "فالتفاعل الأيديولوجي يمثل أعلى مستويات التفاعل مع الحيّزات الوجودية بنقائض متضاربة تعكس انعكاس الوجود في تأمل، وتفكير منفي"[٣].

وشعر جبران يحمل طابع الخصوصية من حيث كونه واقعة جمالية، فالتصور الفلسفي

(١) في نظرية الأدب، الماضي، ص١٠٣.
(٢) آفاق الشعرية، دراسة في شعر يحيى السماوي، شرتح، ص١٤٩، ١٥٠.
(٣) السابق، ص١٥٠.

في نصه يعكس مسألة جمالية تعبر عن الموقف الذي يؤسسه الشاعر انطلاقًا من وعي بواقعية الأدب، وتأمل للحياة بأسرها، والرغبة في تغيير المجتمع والإنسانية، إلى ما يتسق مع المثالية من وجهة نظره.

إن النص الفلسفي يرتبط بعالم من النظم والأنساق الفكرية التي تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة: الدين، القانون، الأدب.. ويؤسس نسقًا كاملاً من الأفكار والمفاهيم والنظريات، وتلك المفاهيم هي أهم أداة للنظر الفلسفي، وتعتبر مستودعًا للخبرة الفكرية الإنسانية التي تحمل مختلف المذاهب العقائدية والأيديولوجية في سياقات فكرية مثيرة للتحليل والنقد(١). ووفق هذا المستوى الأيديولوجي فإن تلك المفاهيم الفلسفية قادرة على التجدد والتطور تبعًا لمتغيرات عصر الشاعر، وهذا يعكس المرونة التي تجعل المفهوم مرنًا ومنفتحًا على أنماط متباينة من المعرفة والوجود.

ونرى جبران في هذا السياق يثبت رغم الانتقال الكلي من الشرق إلى الغرب الحنين الدائم للوطن المثالي، وهذا الحنين ينبع من رؤية تربط المثالية عنده بالعالم العربي الإسلامي، وهذا التصور يصب في مفهوم الفلسفة الجمالية عنده، فقد بنى قصائده عليها، فأصبح بذلك النص الشعري صيغة جمالية في ذهن الشاعر، حيث "أتاح للنص أن يتحدث إلينا من جديد"(٢) وفق رؤية خاصة.

وأهم أسباب إبداع جبران هو ذلك البعد الفلسفي المرتبط بالأيديولوجيا، فهو الذي أنتج تلك النصوص الجميلة، ومثله كان الرفاق في المدرسة الشمالية والعصبة الأندلسية، وإن كان لكل شاعر خصوصية يتفرد بها عن غيره.

(١) انظر: الفلسفة والنقد، ص ٢٢،٢٣.
(٢) تجلي الجميل، ص٢٨٥.

إن للحياة التي عاشها جبران أثرا في موقفه من الأديان، فشعره يدل على ذبذبته وتزعزعه أمام الدين، وأخباره وما كتب عنه-أو بعضه- ينفي ارتباطه بدين محدد، يقول الدكتور الطاهر أحمد مكي: "وأنكر الأديان برغم أنه كتب صفحات عن السيد المسيح عليه السلام، ونادى بالمحبة "[١]، ويذهب حاوي إلى القول: إن جبران الذي شغله هاجس توحيد بني قومه، لم يتمكن –رغم جدية هذا الشاغل- من تصور وحدة قومية تقوم على أساس علماني، ففكرة جبران عن توحيد المسلمين والمسيحيين تأتت من قناعته بوحدة الأديان التي تعلمها من أمرسون[٢]، الذي بذل جهدًا في إحياء الهندوكية في القرن التاسع عشر، وأخذ عنها جبران فكرة "وحدة الأديان كافة"[٣].

والدين وفق رؤية جبران الفلسفية هو عمل فطري متعلق بالإنسان ونيته وإن اختلفت مظاهره، "كان الدين هو الواقع الذاتي والعمل هو التعبير عن هذا الواقع، فلقد دعا جبران إلى عمل ديني حر تكتشف الذات من خلاله طاقاتها، والمجهول الذي لم يتبلور بعد، فالدين في جوهره ليس عملاً شكليًا طقسيًا، وإنما أعمال تعكس ما تخبأ في النفوس، وتجوهر بالنيّات، ولا الدين بما تظهره المعابد وتبيّنه الطقوس والتقاليد، بل بما يختبئ في النفوس ويتجوهر بالنيّات"[٤].

وانطلاقًا من فكرة أن الأيديولوجيا هي الانتساب إلى مبدأ ديني أو فلسفي، نرى في شعر جبران الحنين لمثالية الأديان في المسيحية والإسلام، وإنكار قصر تلك الأديان على الكراهية والصراعات الطائفية التي كانت السبب في النزوح والهجرة، وبذلك يضيف معنى جديدًا في العالم الجديد الذي يعيش فيه، ويسعى إلى إيجاد طريق يوازي فيه بين الأديان،

(١) الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، ص١٣٢.
(٢) انظر: جبران خليل جبران، إطاره الحضاري، وشخصيته، وآثاره، حاوي، ص١٨٥.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٠.
(٤) جبران خليل جبران، أصالة وحداثة، خيربك ناصر، ص١٦٤.

ويرفض من خلال أدبه التحيز الـذي يـؤدي إلى الخـلاف فهـو في شعـره دائـم الحنين إلى العالم العربي.

ومما كتبه جبران عن الدين، قوله:

والدينُ في الناس حقلٌ ليسَ يزرعه غيرُ الأُلَى لهمُ في زرعِهِ وطَرُ
مِن آملٍ بنعيم الخلدِ مستبشِرٍ ومِنْ جَهُولٍ يَخَاف النَّارَ تَستَعِرُ
فالقومُ لولا عقابُ البعثِ ما عَبَدوا ربًّا ولولا الثوابُ المرتَجى كفرُوا
كأنَما الدين ضربٌ مِنْ مَتَاجِرِهِم إنْ واظبُوا رَبحوا أو أهملوا خسرُوا
ليسَ في الغاباتِ دينٌ لاَ وَلا الكفرُ القَبيحْ
إن دين الناسِ يأتي مثلَ ظلٍّ وَيَرُوحْ
لم يقُم في الأرضِ دينٌ بعدَ طَه والمسِيحْ[1]

ويتبلور مفهوم الدين في فلسفة جبران من خلال رفضه لمن يقرن الدين بحاجاته، فهو يرى أن هذه الحاجة وهذه المصلحة شديدة القبح ولا تمت للدين بصلة، وبذلك يصبح الأمر "تجارة" بقوله: "كأنما"، فيدرجها في ضروب التجارة.

والمنتظر هنا أن تكون معرفة الله عند جبران صوفية بحتة، بمعنى معرفة الله عن طريق حب الذات الإلهية، وفناء المخلوق في محبة الخالق، وهو على ذلك حتى قال:

لم يقُم في الأرضِ دينٌ بعدَ طَه والمسِيحْ

وفي هذا البيت يؤكد جبران مسألة أن الدين هو الشريعة والوحي، فلم يتكرر بعد طه ﷺ، ولكن كان هناك رسل آخرون وشرائع أخر واجب على صاحب الدين الإيمان بها. والحق أن فلسفة جبران في البيت الأخير تؤكد أن الدين الحق لم يقم في هذا العالم مثلما كان من

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص٣٧٩.

قبل، فافتقاد جبران لنماذج تحسن القيام بأمر الدين جعلته يحنّ إلى عالم يبني فيه دينًا ونماذج من عوالم أخرى في خياله.

فنظرته المثالية التي يعيشها بخياله وأحلامه تستغني عن أديان الواقع وتحلق في أفق أبعد من ذلك، وفلسفة الحنين في هذه الأبيات تنطلق من رؤية جبران للدين الذي يبتغيه، وهو دين من لبنات خياله، دين الأم والحياة، دين العالم المثالي، دين ليس فيه ثنائية الإيمان والكفر، فالدين في ذلك العالم كظلّ ينتهي ويبدأ ولا اختلاف بين بدايته ونهايته.

وبذلك يمثل النص الشعري عند جبران مرحلة من مراحل التصوف، حيث تلتقي عندها جميع الأديان التي وصل إليها جبران بالأدب والشعر، فالشعر كما يرى كبار المبدعين قرين النبوة، وفلسفة جبران تؤكد فكرة الارتقاء بالعنصر البشري إلى أن يكون خيرًا مطلقًا، كما قال أبو العلاء المعري:

الناس للناس من بدوٍ ومن حضرٍ بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

يصل فيها الإنسان إلى مرحلة يتقبل فيها أصحاب الأديان الأخر، بل والتوجهات غير السماوية، وهي مرحلة ترقى بالإنسان إلى أعلى المراتب.

ولأن دراسة النص الفلسفي تحيلنا إلى النظر في أهم جوانب الأيديولوجيا وهو الجانب الفكري لمتخيل جبران الشعري، فقد أسس جبران تجربته من النشأة في أرض لبنان أرض الصراعات التاريخية للأديان والمذاهب، إلى الانخراط لحظة الوصول إلى أمريكا، ولقائه شخصيات ساهمت في تجديد مسار الفكر والحوار والحياة عنده، وفي الوقت نفسه الارتقاء بفكرة الإنسان الكامل المنفتح على عوالمه الداخلية، ويتكامل هذا المفهوم الفكري بطريقة مختلفة يراها الطريقة الأفضل للرد على من يعادي فكره، يقول في قصيدته "يا من يعادينا":

يا منْ يعادينا ومـا إنْ لنـا ذنـبٌ إليـه غـير أحلامنـا

هــذي رحيقٌ ما لها من أكْؤسٌ فكيــفَ نسقيهـــا للُوّامِنـــا
وهــي بحــارٌ مدُّهــا صَمْتُنــا وجزْرُهــا في حِــبرِ أقلامِنــا
جاورتــم الأمــسَ ومِلنـــا إلى يــومٍ موشّــى صبحُــهُ بالخفــاء
وجبتـــم الأرض وأطرَافهـــا ونحن نطوي بالفضاء الفضــاء
لوموا وسبّوا والعنوا واسخرُوا وســـاورُوا أيامنـــا بالخصـــام
وابغوا وجوروا وارجموا واصلبوا فالــرّوح فينــا جوهــرٌ لا يضــام
فنحنُ نحنُ كوكبٌ لا يسير إلى الورا في النّورِ أو في الظلام
إن تحسبونا ثلمةً في الأثير لن تستطيعوا رتقها بالكلام(١)

فيوجه جبران خطابه في هذا النص إلى أعداء الفكر، بل لكل الأعداء المحتملين أن يكونوا أعداء، وتبرز أيديولوجيا جبران والمهجريين في فكرة يريد إيصالها لمن يعاديه فيقول: نحن هنا ومهما قلتم لن نقاتلكم، ولن نسبكم، نحن نحلم افعلوا ما شئتم، وسيأتي اليوم الذي ستعرفون فيه أننا على حق، فإن جبتم الأرض فنحن نذهب للفضاء كالطيور بالفكر، ونحن أهل الفكر والرؤية، فنرتقي وأنتم باقون في الأرض، وترتقي بالفكرة أيديولوجيا جماعة المهجر، وجبران في هذا النص يعبر عن قمة السلام وما ينبغي أن يكون عليه الرد، وفلسفة الحنين هنا لضمير أيديولوجيا الجماعة الذي تكوّن بهذا الإحساس والسلام النفسي في سبيل بناء فكر أيديولوجي يقوم على السلام والمسالمة ويعبر عن كيان الفكر المهجري.

وفي قصيدة "ماذا تقول الساقية"(٢) تنبع فكرة أيديولوجية أخرى يعبر عنها الشاعر مستخدمًا لفظة "الساقية"، يقول:

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٤١، ٦٤٠.
(٢) صاغ جبران أفكاره في هذا النص على شكل حكم وأمثال، وحاول إعادة صياغة ما سبق له قوله في النثر، كما أوجد لنفسه نظامًا خاصًا لتوزيع التفعيلات والقوافي مع ما تتطلبه روحه المتمردة، ومخيلته الجبارة. انظر: هكذا تكلم جبران، هنيدي، ص١٢٥، ١٢٣.

سرْتُ في الوادي وقد جاء الصباح معلنًا سرَّ وجـــودٍ لا يـــزولْ
فـــإذا ساقيـــةٌ بين البطـــاح تتغنّـــى وتنـــادي وتقـــول:
مـــا الحيـــاةُ بالهنـــاء إنما العيـــشُ نـــزوعٌ ومَـــرَامْ
مـــا المـــمات بالغِنـــاء إنما الموتُ قنـــوطٌ وسِقـــامْ
مـــا الحكيـــمُ بالكـــلام بل بسّرٍ ينطوي تحت الكـــلامْ
مـــا النعيـــمُ بالثـــواب إنما الجنـــةُ بالقلبِ السليـــمْ
مـــا الجحيـــم بالعـــذاب إنما القلبُ الخلي كلّ الجحـيمْ
مـــا الجـــمال بالـــوجـــود إنما الحســنُ شعاعٌ للقلـــوبْ
ذاك ما قالتـــهُ تلـــكَ الساقيـــةْ لصخورٍ عـــن يمـــين ويســـارْ
رُبّ مـــا قالتـــه تلـــكَ الساقيـــةْ كان من أسرار هاتيكَ البحار[1]

وفكرة تلك الساقية هي القلب السليم، وهي فكرة تنم عن إيمان عميق من خلال إبراز صراع الإنسان بين الخير والشر، فقد لجأ جبران إلى أسلوب المقارنة بين الشيء وضده أو التقابل لإبراز الحقائق بين الأشياء المتضادة بين العالم المادّي وعالم الروح النّقي الصافي، ويتعامل خطابه مع ظاهرة تركيبية لها حضورها في صياغة النص وهي "الثنائية الضدية" التي خرج بها الشاعر "من دائرة التعامل المألوف التي يقدمها المعجم إلى دائرة التداخل التي تزيل حدة المفارقة، وتكاد تلغي الثنائية فتشكل بنى طارئة تجمع بين التضاد والتوافق على صعيد

(١) المؤلفات العربية الكاملة، ص٦٦٦، ٦٦٧.

واحد"[١]، وتعكس المقارنة في حديث تلك الساقية حقيقة الحياة والممات، والنعيم والجحيم.. وفق منظور فلسفي خاص لا يخرج عن دائرة الرؤيا الصوفية، وهذه الرمزية الفلسفية ترتبط "بعملية المعرفة التي ينعكس فيها العقل على نفسه، ليتأمل حضوره في ثنائية المعرفة الذاتية"[٢].

ويقوم هذ النص على عملية تفصيل للحقائق الإنسانية، كما يضع لها شروطًا وأشكالاً جديدة وكأن جبران يرسم إنسانية جديدة بعد معاناته في الوطن والمهجر، فساقية قلب جبران هي رمز للسقيا، وفي الوقت ذاته رمز إعادة تسمية الأشياء داخل الطبيعة، لأن "الشعر ليس إفراغًا للانفعالات وإنما إعادة تشكيل لها هي ومشاهد الأحداث، وهو ليس محاكاة لمفردات الواقع وإنما صياغة مجازية لها"[٣].

فالأيديولوجيا في هذا النص تعيد ترتيب الأشياء دون الاكتفاء بفكرة توزيع الماء، فالصراع الداخلي الذي يعيشه جبران يحمل الحنين إلى تجاوز الواقع إلى عالم آخر تسمو به ذاته وتعلو في مراتب أكثر سمّوًا وعلوًّا، فجبران وفق الفلسفة الوجودية "يحاول دائماً أن يترك حالته السابقة ليتوجه إلى حالة تعلو عليها"[٤]، ويسير في طريقه دون توقف. أما في البيت الأخير فنراه يعبر عن الساقية وكأن قضية الانتفاع والمصداقية هي السبب في أن يرسل الله لتلك الساقية البحار العظيمة بأسرارها؛ إكرامًا للساقية، فالفكرة الأيديولوجية نابعة من ربط الانتفاع من الطبيعة بالانتفاع بالإنسانية والفكر، وهذا نوع من فلسفة جبران في الحنين داخل هذا الكون الفسيح.

(١) هكذا تكلم النص، استنطاق الخطاب الشعري لرفعت سلام، عبد المطلب، ص١٠٣.
(٢) تحولات شعرية، عصفور، ص٣٠٥.
(٣) المرجع السابق، ص٣٣٠.
(٤) قضايا نقدية، تطبيقات عملية في علاقة الفكر بالأدب، الكومي، ص١٤٧.

الخاتمة

١. تنعكس فلسفة الحنين في شعر جبران على النص من خلال بناء المعجم الجبراني الذي يتضح فيه أثر المدرسة المهجرية في شعره، فلا نرى في معجمه كلمات استعدائية لا على أمة، ولا جيش، ولا إنسان، وأصبح قديس الفكر في كل ما يكتب، خاصة في فكرة الحنين والحب الفلسفي الصوفي، واستعمال المجازات الخاصة به داخل عالمه الخاص الذي يؤمن بقدسية الحب والحنين، ثم اتسعت دائرة الإبداع عنده في العالم الموازي للشعر في الرسم والتأليف النثري.

٢. يتضح تأثر جبران بفلسفة أفلاطون التي تنطلق من فكرة أن العالم الحقيقي الوحيد هو عالم المُثل والأفكار، وبذلك فمعاني جبران الشعرية تعبر عن الحنين انطلاقًا من هذه الرؤية، وتبعًا لذلك يتحرر من كل القيود والالتزامات، ويعبر عن الحق والخير والجمال، ويستعمل اللغة الشعرية استعمالاً مختلفًا.

٣. تبرز هذه الدراسة فلسفة جديدة في عالم الحنين عبّر عنها جبران داخل عالمه المثالي الذي يكشف عنه شعره، ويقدم ما ينبغي أن يكون وفق خيالات الشعر، وما تمليه عليه هذه الفلسفة، ونراه يتماهى كُليًّا فيما يصور، ويقدم صورة مكتملة تحقق التأثير الشعري المطلوب.

٤. هناك قاسم مشترك بين جبران والشعراء الرومانتيكيين الإنجليز في فلسفة الشعر والخيال، فهو يستوحي تجربته من المذهب الأخلاقي في الشعر الإنجليزي، ويعبر عن أفكاره في الحنين في أعلى حالاته، مضيفًا إليها اللمسات الجمالية الفنية.

٥. إن الجمال الأيديولوجي في شعر جبران يتجلى في إدراك الشاعر لمشكلات عصره، واستجابته لحاجات مجتمعه، والنهوض بدور حُر يعزز مكانته بصفته أديبا وفنانا

وشاعرا، ويتجاوز التناقضات بفكرة فلسفية يتوصل من خلالها إلى طريق يوازي فيه بين الأديان، ويرتقي بقيمها، فهو لم يتخذ موقفًا معاديًّا من الإسلام وبقية الأديان، بل عبّر بإنصاف ثقافي ومصداقية فكرية.

٦. تظهر فلسفة الجمال في نص جبران الشعري بصورة كاملة باكتمال بناء القصيدة الواحدة، فعملية المزج بين البحور والقوافي مع مصداقية القصد والدلالة عنده، تحقق الرؤية الفلسفية في شعره.

٧. يبني جبران وطنه الجمالي من فلسفة الخيال، ويتمثل ذلك في كلمة (الغاب) بوصفه رمزًا لوطنه لبنان، إذ يعبر عن حنينه بصورة مثالية تنطلق إلى اللامحدود، باعتبار (الغاب) حياة يحن لها الشاعر ويراها وطنه المثالي في الرحمة والعدل والحب والسلام.

المصادر والمراجع

المصادر

١ – جبران خليل جبران، المؤلفات العربية الكاملة، د.ط، بيروت، مؤسسة نوفل، ٢٠١٥م.

المراجع

آفاق الشعرية، دراسة في شعر يحيى السماوي، شرتح، عصام، ط١، دمشق، دار الينابيع، ٢٠١١م.

أدب المهجر، الناعوري، عيسى، ط٣، مصر، دار المعارف، ١٩٨٩م.

استعادة الماضي، دراسات في شعر النهضة، عصفور، جابر، ط٢، دمشق، دار المدى، ٢٠٠٢م.

الأنا والآخر والجماعة، دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه، حرب، سعاد، ط١، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٤م.

أنثروبولوجيا الثقافة (الإنسان- العرفان- اللسان)، ديورنج، سيمون (وآخرون)، ترجمة: عبد الرحمن طعمة، ط١، طنطا، دار النابغة، ٢٠٢١م.

الإنسان وعلم النفس، إبراهيم، عبد الستار، عالم المعرفة، الكويت، (٤/ ٨٦)، فبراير ١٩٨٥م.

التجديد في شعر المهجر، داود، أنس، د.ط، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

تجلي الجميل، جادامر، مانزجيورج، ترجمة: سعيد توفيق، د.ط، القاهرة، المطابع الأميرية، ١٩٩٧م.

تحولات شعرية، عصفور، جابر، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦م.

تيارات نقدية محدثة، عصفور، جابر، ط٢، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م.

جبران خليل جبران، أصالة وحداثة، خيربك، مها ناصر، ط١، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٦م.

جبران خليل جبران، إطاره الحضاري، وشخصيته، وآثاره، حاوي، خليل، نقله إلى العربية: سعيد فارس باز، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.

جبران الفيلسوف، خالد، غسان، ط٢، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٣م.

جبران خليل جبران، نعيمة، ميخائيل، ط١٣، بيروت، مؤسسة نوفل، ٢٠٠٩م.

دراسات في الفلسفة، الفكر، الدين، السياسة، الثقافة، الأدب، فراج، عفيف، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠١٤م.

ديوان المتنبي، د.ط، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، أحمد، محمد فتوح، د.ط، مصر، دار المعارف، ١٩٧٧م.

الرومانتيكية، هلال، محمد غنيمي، د.ط، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٣٨م.

الشاعر والطفل والحجر، عبد السميع، فتحي، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦م.

شعراء الرابطة القلمية، سراج، نادرة جميل، ط٣، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩م.

الشعر العربي في المهجر (أميركا الشمالية)، عباس، إحسان، نجم، محمد يوسف، ط٣، بيروت، دار صادر، ١٩٨٢م.

الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، مكي، الطاهر أحمد، ط١، مصر، دار المعارف، ١٩٨٠م.

الشعر وهموم الإنسان المعاصر، عمارة، إخلاص فخري، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٨م.

شعرية جبران، المستمر بين الشعري والفني، السالمي، سمير، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠١١م.

الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، عوين، أحمد، ط١، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠١م.

الطبيعة في شعر المهجر، داود، أنس، د.ط، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

العقل والوجود، كرم، يوسف، ط١، الدمام، مكتبة المتنبي، ٢٠١٩م.

علم نفس الشخصية، ربيع، محمد شحاتة، ط١، عمان، دار المسيرة للنشر، ٢٠١٣م.

الغربال، نعيمة، ميخائيل، ط١٥، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٩١م.

الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، طحطح، فاطمة، ط١، الدار البيضاء، مكتبة النجاح الجديدة، ١٩٩٣م.

الفلسفة والنقد، مراصد إبستيمولوجية، لميني، فريد، ط١، لبنان، دار التنوير، ٢٠١٦م.

فن الشعر، عباس، إحسان، ط٣، بيروت، دار الثقافة، د.ت.

في نظرية الأدب، الماضي، شكري عزيز، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.

في نقد الشعر، الربيعي، محمود، د.ط، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٨م.

قصة الأدب المهجري، خفاجي، محمد عبد المنعم، ط٢، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣م.

قضايا نقدية، تطبيقات عملية في علاقة الفكر بالأدب، الكومي، محمد شبل، تقديم: محمد عناني، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.

الكون الشعري، مدارات ومسارات في التذوق الجمالي، الخليل، أحمد، ط١، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧م.

المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، راغب، نبيل، د.ط، مصر، دار مصر للطباعة، د.ت.

معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، وهبة، مجدي، المهندس، كامل، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، د.ط، القاهرة، المطابع الأميرية، ١٩٨٣م.

معجم الموسيقى العربية، محفوظ، حسين علي، د.ط، بغداد، مطبعة دار الجمهورية، ١٩٦٤م.

النثر المهجري، المضمون وصورة التعبير، الأشتر، عبد الكريم، ط٤، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٩٨٣م.

نقد المذهب الجمالي (هل نستغني عن الصدق؟)، النويهي، محمد، د.ط، بيروت، دار صادر، د.ت.

هكذا تكلم جبران، هنيدي، نزار بريك، ط١، دمشق، مؤسسة علاء الدين للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م.

هكذا تكلم النص، استنطاق الخطاب الشعري لرفعت سلام، عبد المطلب، محمد، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.